ذوق الجمـــال
وأثره فى المجتمع

ما برحت الإنسانية تتطلع إلى غدها الذى يتحقق فيـه بناء عالم جديد من الخير والحق والجمال . وما زال الفلاسفة العالميون وأحرار الفكر يحلمون بالمدن الفضلة وتراودهم فكرة السلام الذى يشمل العالم جميعا ، فتمتنع الحروب وترتفع عن الأرض نقمة " مارس " وتتلاشى العداوة الكامنة بين الإنسان وأخيه الإنسان .

ولا شك أن ذلك اليوم المرقوب غير قريب، وأنه ما يزال بين الإنسانية و بينه خطوات طوال . فلندع فريق الفلاسفة الحالمين يتفاءلون ما شاء لهم التفاؤل ، ولنحاول نحن أن نشعر أنفسنا بأن معانى السعادة والخير هى فى متناول أيدينا متى أردنا ذلك وحرصنا على إرادتنا فيها . والحق أن الإيحاء جدير بأن يهيىء الواقع المحسوس من شوارد الخيال وتوافر الأمانى، وإن له لقوة على الخلق والتوليد و بعث الرغبة وتجديد الاحساس و إرباء الشعور بشىء من الأشياء ، ومن خصائصه — أو من مزاياه — إرهاف مواطن الخيال فى النفس وتنوير مراكز التصوير .

* * *

وليس فى النفس الإنسانية شعور أسبق ظهورا من الشعور بالجمال ، ولا أصدق منه فى إلهام الفطرة والمعبة البداهة . وهو المعبر الصادق عن نزعات النفس وخفايا الضمير لاتصاله بمركز العاطفة وارتباطه بالغريزة التى تتوفز أبدا بأقوى مافى التوفز من خلجة واضطرام وأيما شعور تلهمه الطبيعة وتسدده الفطرة ، فهو شعور مطبوع متعدد الجوانب فى النفس عميق القرار .

و إننا لنشعر بالجمال قبل أن نعرف ما هو الجمال. وقد نختلف فى تعريفه وتحديده و بيان خصائصه ، ولكنا لن نختلف فى الإحساس به والشعور بمزاياه التى تبدو النظر أول ما يلقاه

والجمال قبل أن يكون شية ظاهرة فى عضو من الأعضاء، فى حى من الأحياء ، هو معنى باطن يوحى إلى النفس بأنه جميل، وقد يبدهك الشىء الجميل فتراه كذلك فى جملته ولا يحوجك إلى التخصيص والتحديد . وذلك هو الشعور بالجمال .

والشعور بالجمال — أو ذوق الجمال — يتفرق فى معناه بين أشياء شتى تنتهى كلها إلى معنى الجميل .

فهناك الشعور بجمال الحياة .

وهو الشعور الذى يواجه الحياة وتكاليفها بالطلاقة والشوق والمخاطرة ، وينأى بجهده عن مخالطة الألوان القاتمة والجوانب الغامضة .

هذا الشعور يعلمنا كيف نحب الحياة وكيف نراها جميلة ، لأنها هى الحياة ! ويرشدنا الى الواجب فى الانتفاع بكل لحظة من لحظات هـذه الحياة و إتقانها فى خير أبوابها ، حتى لا تضيع ثمرة جهدنا ويقعدنا اليأس عن معاودة الجهاد ومواصلة الطماح . وهو يعلمنا أيضا كيف نعتز بحيواتنا وكيف نضن بها على الفراغ المسئوم والنضوب والجمود .

قلما نجد هذا الشعور فى دنيا الناس ! فهو لم يتمدّ حتى الآن دواوين الشعراء وأجواء الفنانين الكبار من أنصار مذهب الطلاقة والتفاؤل ، ومسايرة مذاهب الحياة المختلفة وعدم التمرد على الأقدار .

فمتى يشعر الناس بجمال الحياة ؟ !

*
* *

وهناك الشعور بجمال الانسانية .

وهو شعور الصداقة والتعاطف بين فرد وفرد ، وبين قبيل وقبيل ، و إنى لأكسب كثيرا — ولا أخسر شيئا — حين أوطد نفسى على الإيمـان بالخلق الانسانى فى مظهره المعهود ، فأجتذب الىّ أصـدقاء يكون مدارهم فى الحياة من جنس مدارى ، وأجتهد فى الأغضاء عما يكون فى شعورهم نحوى من شـذوذ أو انحراف ، معللا ذلك الشذوذ أقرب تعليل الى البساطة ، فانه ليكون صادقا فى كثير من الأحيان ، ثم أنأى بأعصابى عن التسخط والغضب ، ولا أحمل شيئا ما على محمل سيىء فعنـدئذ أستطيع أن أعاشر كل فرد وأصادق كل شخص عند الحاجة . و إن ذلك — أو خير ما فيه — لخليق أن يزيد نصيبى من العطف والتعاطف ، ويقوى عندى عناصر المشاركة الوجدانية لأفراد الانسانية جمعاء .

وقل مثل هـذا بين أمة وأمة ، أو بين أمم العـالم بأسره ، فبهذا الشعور يمحى التوتر ويتلاشى التعصب المشهود فى عالمنا الحاضر ، كالتعصب للجنس وللدين .

*
* *

وهناك الشعور بجمال الإيمان ...

و إن أناسا ليطغيهم الترف المـادى الحديث فينكرون كل حقيقة تتصل بأمر الروح ، ويرعا إلى المـادية الجوفاء التى قادتهم إلى الاغراق فى إنكار الإيمان . وكأنهم ينكرون ذلك

الرباط المقدس بين الله والانسان ، وتلك النفحة الخالدة التي ترتفع بالبشرية إلى آفاق العقيدة العلوية .

واجب هؤلاء أن يعلموا أن الانسان روح قبل أن يكون جسدا ، وأنه عقيدة قبل أن يكون فكرا ، وإن الحياة لتفقد أكرم معانيها اذا هي مضت بغير قائد من الايمان ودافع من الروح . ولن تكون هي الحياة اذا ظلت لعنة المادة تملي عليها مذاهبها وغاياتها ، وما لم تتقدم الروح على المادة فستظل الانسانية حيث هي في مذهب "دارون" بغير تقدم كبير !-!

* * *

قلنا إن الشعور بالجمال ، أو ذوق الجمال، يتفرق بين أشياء شتى تنتهي كلها إلى معنى الجميل .

فيتعدد الشعور بالجمال الكامن في ظواهر الكون ومشاهد الطبيعة ، فأي معنى للجمال تلهمنا إياه عظمة الكون الكبير، تلك الأجرام اللانهائية والكواكب الأبدية في آفاق السما.؟

وأي معنى للجمال تلهمنا إياه قداسة الطبيعة ، في عديد عناصرها وشتى وجوهها ؟

إن الطبيعة لصادقة حين تطالعنا بالضياء كل صباح، وحين توافينا بالظلام كل مساء ، وذلك الصدق — إن شئت أن تسميه كذلك — سر من أسرار جمال الطبيعة ، فمتى يكون الصدق سرا من أسرار الجمال في الانسان ؟ ؟ ومتى يكون جمال السريرة هو المعيار والمقياس لاجمال الملامح والسمات ؟ ؟

ومتى يحذو الانسان حذو أمه الطبيعة ، فيفيء الى مواطن الجمال في نفسه ، قبل أن يتلمسها في بواطن الأشياء ؟

إننا نؤمن بالإنسان ، فهل يصدق ذاك الإيمان ؟

* * *

وبعد ، فاذا كان ذوق الجمال يؤثر في الفرد هذا التأثير ، فانه لا يقل عن ذلك أثرا في المجتمع عامة . فالمجتمع الذي يسود فيه ذوق الجمال ، ويحتكم الى ذوقه الخاص فيما يأخذ وما يدع ، هو في جملته مجتمع مثالي من طراز رفيع .

لأن ذوق الجمال ، ينبئ عن الاستقلال فى مطالب الحياة وتكاليفها ، أو هو حرية الاختيار ، بين شيئين أو جملة أشياء، ولن يكون المجتمع مستقلا بنفسه مالم يستقل، قبل، بذوقه الخاص فى منادحه وأغراضه . ولذلك كان الجمال فى مذهب بعض عباقرة الفكر هو الحرية ! أو هو الانطلاق من قيود الضرورات إلى فضاء المشيئة والاختيار .

وإذا كان إدراك الحرية ثمرة من ثمرات ذوق الجمال ، فليس يضير المجتمع ، كائنا ما كان ، أن يتطلع الى تذوق كل جميل ، وأن يشتغل به ويشجع عليه . ولنحرص على الجمال فى كل مظانه فإنه الفاصل الحاسم بين الأثرة والإيثار ، وبين الحرية والاضطرار ؟

محمد محمود حمدان

" ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون "

" قرآن كريم "